مقال حول رواية مغامرات هاكلبري فن

(1)

إن لقصة (هاكلبري فن) معنى فى الحياة المنشودة التى كتبها الكاتب" مارك توين"، فقد أراد أن يظهر لنا هذه الرواية كهدف لابد من أن نقتدي به. وبخاصة عندما كتب حكاية غلامين صغيرين اقتسما بطولة هذه القصة و هما "توم سوير " المغامر المحظوظ"، و"هاكلبري فن " الفتى الشريد الضائع . وعندما تذكر القصة المغامرة والمخاطرة التي جازف بها بطلا الرواية من أجل إرضاء النفس وراحة الضمير عندما يقررا أن تكون مغامرتهم ومخاطرتهم هى تعقب اللصوص وقطاع الطرق ومحاولة رد ما يسلبه المجرمون من الناس من أموال وما شابه، إما عن طريق البوليس وإما بطريق المفاجأة .....

ولكن ما لا أفهمه هو موضوع الفدية . كيف بعد أن يقبضوا على اللصوص، وهذه مغامرة كبيرة أيضا أن مجموعه من المغامرين الصغار بمقدورهم أن يقبضوا على اللصوص والمجرمين وأن يطلقوا سراحهم ثانية بعد أن يقبضوا عليهم بعد أن يروا أنهم لا يهددون المجتمع . فكيف يكون لفتية مغامرين تفكير الى هذا الحد، وهو أن يروا بقلة خبرتهم أن يطلقوا سراح المجرمين بعد أن يقبضوا عليهم على أنهم لا يهددون المجتمع بشيء . هذه هي النقطة الأولى التي دارت في تفكيري عند قراءتي للقصة. أما النقطة الثانية وهى موضوع الفدية. كيف يكون لهم الحق فى ان يطلقوا سراح المجرمين واللصوص بعد أن يطلبوا من أهاليهم الفدية !

ماذا تكون هذه الفدية المطلوبة لإطلاق سراح المجرمين؟ سؤال غريب، ولكن رده غريب أيضا ، فقد قال"توم سوير" إن هذا ما يفعله المغامرون دائما ! وهذا ما يجب أن نفعله، وهذا ما قرأه في كتب المغامرين. وإن المذكور في الكتب لا بد من أن لا يخالفوه أبدا وإلا فسدت كل مغامرتهم !

(2)

إن هذه القصة مغامرات فعلا لهؤلاء الغلمان فقد يبدأ فى الفصل الثالث من القصة تمثيل دور المغامرين الجن، وهى أكذوبة من أكاذيب توم سوير التي اخترعها لكي يرهب بها أصدقاءه . بعد أن قرر هاكلبري التأكد من صدق هذه القصة، فحصل على مصباح قديم من الصفيح وخاتم حديدي، وذهب إلى الغاب، وأخذ يحك إلى إن سال العرق من جسمه بغزارة، ولم يات أحد من الجن، وعندئذ أدرك أن كل ما سمعه هاكلبري من توم سوير لم يكن إلا

أكذوبة من أكاذيبه التي لا ينضب لها معين !! وأيقن أيضا أنه يؤمن بالخرافات والسحر، ولكن لم يسمح لنفسه أن يؤمن بهذه الخرافات بعد ما سمعه .

إن لهذه القصة جذور من الواقع أتى بها الكاتب فى رواية بعضها يحدث في طفولة أي منا، وأن هذا هو التفكير الذي يفكر به الأطفال في هذا السن، ويعتبرون هذا نوع من أنواع المرح والمغامرة التي يعيشونها في تفكيرهم في هذا السن .

أكثر الشخصيات التي تعجبني في هذه الرواية هي شخصية هاكلبري الفتى الصغير المتشرد الذى ليس له عائله غير والده السكير المتجول فى الشوارع ولا يفق لأي شيء أو أي حدث . وأيضا لما يعانيه هذا الفتى حرمانه من عطاء الأب وحنان الأم التي فقدها في صغره، وهذا مما جعله متشردًا مع هؤلاء الصغار في مثل سنه، وقلة معلوماته مما جعله يخطئ حتى صدق ما يقولون حول الجن والشطان. أما الشخصية الثانية فهي شخصية مارك توين الفتى المغامر الذى يخاطر بنفسه من أجل اتباع تفكيره مما جعله زعيمًا لهذه المجموعة المغامرة، والعقل المفكر والمدبر لهم فى كل مكيدة أو مغامرة يقومون بها مستخدما قلة تفكير من حوله بسرعة رده في المواقف الصعبة التي تحتاج إلى مغوار، والرد على الأسئلة التي تطرحها بقية المجموعة بما أنه هو زعيم المجموعة، أي أنه هو المحرك الأساسي لهم والعقل المفكر والمدبر لهم .

(3)

ولكن ما اتضح في النهاية هو قلة معلوماته الصحيحة، فأكثر ما عنده هو الثرثرة بالخرافات وتأليف الشائعات حتى يصدق من حوله ما يقوله من قصص وكلام مجهول الأصل لا صحة له ولا معنى، إنما قليل المعلومات هو من يصدقه ويصدق ما يقول، حتى يخيل له تفكيره تبرير هذا على الواقع. ننتقل إلى الرواية، وفى الفصل الثامن والتاسع من القصة وهو النوم في الغابة والعثور على جيم في الغابة بالجزيرة، ثم النزول إلى الكهف والاختباء به لما سيكون في هذه الليلة من أمطار غطت بعضًا من شاطئ الجزيرة بالفيضان الذي استمر حوالي فترة تتراوح بين عشرة أيام واثني عشر يومًا، حتى فاض ماء النهر على الشاطئين، ثم بدأ الصغار بالنزول من الكهف حاملين أمتعتهم متجهين نحو القارب .

أكثر ما يميز هذه القصة هى طريقة سردها ودقتها في التفاصيل والمعاني السهلة التي باللغة العامية القريبة إلى أذن وعين القارئ، فيجعلك تعيش في المغامرة التي يعيشون فيها هؤلاء الصغار. ولكن تنتهي قصة هؤلاء البطلين وهما "توم سوير" و"هاكلبري فن" بعثور الغلامين على كنز ثمين اقتسماه كل منهما، وعهد كل واحد منهما بنصيب منه إلى أصدقاء كبار استثمروا لهما ذلك المال.

وأصبح هاكلبري فن الفتى الشريد الضائع نجمًا من نجوم المجتمع. عندما كان فقيرًا متشردًا، وآوته سيدة كريمه، تناولته بالتثقيف والتهذيب وراحت تغرس فيه العادات الفاضلة والتقاليد الحميدة لكى تجعل منه مواطنًا صالحًا، ولكن مارك توين عندما أنهى قصة "توم سوير" على ذلك النحو كان قد اعتزم أن يتتبع حياة الغلامين مرة أخرى، فيؤرخ لهما بعد أن أصبحا شابين يافعين، ومن ثم قال فى الخاتمة: "وعند هذا الحد تنتهى هذه القصة، وإنه لمن الخير أن تنتهي هنا لأنها لا تعدو أن تكون ترجمة حياة غلام هو توم سوير، ولو أن القصة مضت إلى ما هو أبعد من ذلك.

(4)

لكان حتما أن تصبح ترجمة حياة رجل . فعندما يكتب المرء قصة عن أحد الراشدين، يدرك أين ينبغي له أن يتوقف ... ولكنه حينما يكتب عن الأحداث فإنه يحرص على أن يتوقف عن الكتابة عند أحسن خاتمة ملائمة. واضح من خاتمة قصة "توم سوير" أن قصة "مغامرات هاكلبري فن" هي طريق إلى أحداث قصة أخرى لأنهم بعد أن قضوا المغامرة التي أرادوها دخلوا في مغامرة وقصة أخرى عندما أرادوا أن يقضوا أسبوعين في بلاد الهنود الحمر. ولكن الحزين فعلا أن تنتهي القصة بخاتمة هاكلبري التي يقول فيها: "وإنني سعيد لأن مغامرتنا انتهت نهاية حسنة ونحن جميعا نأمل أن يغفر لنا ما بدر منا ....والآن لا يوجد ما يستحق أن أكتب عنه ... ولو أنني كنت أعلم ما فى كتابة القصص من عناء ومشقة لما أقدمت على تأليف هذه القصة ... وأعدكم بألا أكتب قصة أخرى ... والسلام".

فعلا إنها لقصة مغامرة تستحق أن تقرأ، فمنها نتعلم ونصير نعرف معاني لأشياء أصبحت مختفية في عالمنا هذا، وأصبحنا بمرور الوقت نفتقدها ونتمنى أن ترجع إلينا ثانية .. ولكن أي زمن هذا يحدث فيه مغامرة شيقة لهؤلاء الصغار مرة. وأكثر ما يسعدني في هذه القصة هو المؤلف "مارك توين"، لقد صور البيئة الحقيقية التي تدور فيها القصة تصويرًا رائعًا، وكشف عن تقاليد تلك البيئة التى لم تعد موجودة مع مر الزمان، بكل ما تحفل به من أهواء ونوازع وخرافات وعادات موروثة .. فهناك مشكلة الزنجي الذي لم يكن يحظى بالتقدير الملائم، وهناك مشكلة الناس البسطاء الذين يؤمنون بالسحر والخرافات، وهناك مشكلة الأب الضائع الذى غلبه الشر على أمره، فراح يطارد ابنه ليسرق ماله وينفقه على ملذاته وشرابه، وهناك مشكلة الفتاة العانس التي تقضي حياتها بين الكتب والكنيسة.

(5)

وهناك مشكلة الموظف البيروقراطي الكبير الذي يكتسب تقديرًا له من طريق منصبه، لا من طريق شخصيته وثقافته، وهناك مشكلة الفتى الضائع الذى يضيق بالنظام والنظافة والحضارة، ويحن الى حياته البدائية الأولى، وهناك مشكلة الآباء والأمهات الذين يشقون بحياة أبنائهم الصغار، هناك أشياء أتى بها مارك توين لكي يوضح لنا معايير وقيم هذه الحياة التي فُرضت علينا نحن.

حقا عندما قرأت هذه القصة، وهى ليست المرة الأولى التى أقرأ فيها رواية أو قصة، ولكني وجدت في هذه القصة معاني مختلفة في الحياة أتى بها مارك توين لكى يذهلنا، وهى نادرًا ما يكتب عنها بهذه الدرجة مع الحرص على تقديم معنى راقٍ ووافٍ كي يفهمه القراء. فقد أدهشني عندما قرأت النسخة الأصلية لهذه القصة، وهى المكتوبة باللغة الإنجليزية، فلم أجد بها معنى صعبًا أو موقفًا يستصعب فهمه، فقد أتى بقصة على نحو سهل. وهذا ما أعجبني في هذه القصة التي تحكي عن مغامرات الغلمان "هاكلبري فن" و"توم سوير".

وأرجو أن أكون قد كتبت ما يكفي لهذه القصة الرائعة التي تحتاج لإبداع كبير كي يعبر عنها بمعانٍ راقيةٍ.

ولكم جزيل الشكر والتقدير لما تقدمونه للجمهور من أشياء يستطيع الاستفادة منها، وأرجو أن ينال المقال تقديركم وإعجابكم .

الاسم / أسامة أحمد نصار